الشعوب العربية العتيقة التي سكنت في الشام

• **الفينيقيون:** من الثابت تاريخياً أن الكنعانيين والفينيقيين شعب واحد لغةً وديناً وحضارةً. وكان الكنعانيون موزعين في بلاد الشام كلها: منهم مَنْ سكن السواحل، ومنهم مَنْ سكن في الداخل. أما الذين سكنوا السواحل، فقد عملوا في الملاحة والتجارة. والذين سكنوا الداخل عملوا في الزراعة.

ولم يكن نشاط أهل الساحل مقصوراً على المدن التي سكنوها، بل اتسعت تجارتهم، ووصلت سفنهم إلى معظم سواحل البحر الأبيض المتوسط، وإلى سواحل المحيط الأطلسي، وأنشؤوا عليها مستعمراتهم[1]، وحملوا في أسفارهم البحرية السلع التجارية، وحملوا أيضاً بذور العلم والتمدن، وأهمها الحروف الهجائية، وكان لهم صلات باليونانيين.. ودخلوا في آدابهم، وملاحمهم قالت: إن أميرة «صور» كانت ملكة على جزيرة كريت، واسمها «أوربة» كما رواها هو ميروس في الإلياذة والأوديسا.

ونتيجة لهذه الصلات أطلق الإغريق اسم «فينيقيين» على هذا القسم من الكنعانيين الذين اتصلوا بهم، وقصدوا بهم سكان الساحل الشامي: صيدا، وصور، وعكا.. إلخ، مع أن هذا الاسم لم يرد في كتاباتنا القديمة، بل نجد دائماً التسمية الكنعانية، ثم انتشر هذا الخطأ الشائع في الأدبيات اليونانية واللاتينية فيما بَعْد.

ويُقدّر زمن بداية اسم «الفينيق» في القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

وما زالت الأبجدية التي يكتبها اليونان في عصرنا هذا موافقة بترتيبها حرفاً حرفاً لترتيب الأبجدية العربية، ولا يختلف هذا الترتيب مرة إلا إذا تقابل حرف من حروف الحلق بحرف من الحروف التي تقاربه في نطق الأوربيين؛ لأن الأوربيين؛ لا ينطقون

---

(1) ومن هذه المستعمرات «لبْدة» و«أويا»، وتقوم عليها الآن مدينة طرابلس في ليبيا. و«صبراته» في ليبيا. و«أوتيكا» و«قرطَاجنّة» في تونس، و«عنابة ـ بونة» و«بجاية» و«جيجل» في الجزائر، و«سداد ـ مليله»، و«طمجيس ـ طنجة» و«سبته» الواقعتان على مضيق جبل طارق، وبقعة «المهدية» الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي، للشمال من بلدة الرباط. و«أزمور» في جنوبي الدار البيضاء. ووصلوا إلى جزيرة كريت، ونشروا لغتهم هناك.

حروف الحلق؛ فالأبجدية اليونانية تبتدئ بحروف «ألفا وبيتا وجما ودلتا»، وهي تساوي «أبجد».

ثم تتقابل حروف «هوّز» بما يقاربها مع اختلاف نطق الهاء، ثم تأتي «كلمن» متتابعة كما هي عندنا وهم ينطقونها: «كافا ولامتا ومي وني».. إلخ.

• **الآراميّون:** واحدهم «الآرامي» نسبة إلى «آرام».

لم تذكر المصادر التي اطلعتُ عليها، معنى الاسم واشتقاقه. لعلهم اطمأنوا إلى ما يزعمه مؤلفو التوراة أنه «آرام بن سام بن نوح»، ولكن الاسم موجود قبل أن تنزل التوراة على موسى، وقبل أن تؤلف التوراة الموجودة اليوم.

ولعل أقدم وثيقة ورد فيها ذكر «آرام» هي نقش «أكادي» يعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، يتحدث عن انتصار الملك «نارام سن» على «خرشامتكي» شيخ آرامي.

وبعد ذلك ورد اسم «آرام» في وثيقة من مدّة أور الثالثة (2050 ـ 1950 ق.م) دون عليها اسم آرامي إشارة إلى مدينة أو إقليم.. وذكر الاسم في نصوص «أوغاريت» من القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وأنا اقترح أن يكون من الجذر العربي «أرام» (والإرَمُ) حجارة تنصب علماً في المفازة، والجمع «آرام». وفي الحديث: «ما يوجد في آرام الجاهلية وخربها فيه الخمس». الآرام: الأعلام وهي حجارة تُجمع وتنصب في المفازة يُهتدى بها.

وقيل: إن الآراميين كانوا بداية من سكان البوادي، فكان هؤلاء السكان من أعلام الصحارى يهتدي بهم المسافرون.

قلت: ربما كانت «آرام» محرفة من «أراب» أي: «عرب».

وانتشر الآراميون في بلاد الرافدين، وفي سورية إلى حدود فلسطين الشمالية، حيث مملكة «آرام معكة» في شمال شرقي بحيرة الحولة. وكانت من ممالكهم آرام دمشق، بلغت أوج عظمتها في عهد الملك حزائيل (842 ـ 796 ق.م).

أما عن أصل وجودهم، فقد تكهن المؤرخون أنهم موجة هجرة جاءَت من جنوب بلاد الشام. ولكن الأقرب إلى الواقع، أنهم كانوا بُداة في بادية الشام منذ أقدم الأزمنة، لا يُسمح لهم بدخول الحواضر، لقوة الممالك وحصانتها، ولاحت لهم الفرصة عندما ضعفت ممالك الحواضر، فأخذوا يتسللون إلى مناطق الجزيرة السورية وبلاد الشام الداخلية، وأسسوا إمارات ودويلات مُدنٍ قويّة، وكان لهم الفضل في نشْر اللغة العربية، وجعلها لغة دولية.

وبقيت الآرامية لغة أهل فلسطين حتى الفتح الإسلامي، وبقيتْ آثارهم اللغوية في بعض قرى القلمون في ريف دمشق، وخصوصاً بلدة «معلولا»؛ حيث يجيد كثير من أهلها الآراميّة في صيغتها السريانية، مع إجادتهم العربية الفصحى.

• وقد ترك الآراميّون ـ الذين عُرفوا فيما بَعْد بالسريان ـ طابعهم اللغوي في تسمية بعض المدن والقرى في فلسطين: أذكر منها مرتبة.هجائياً.

• إذْنا: بمعنى الأذن: قرية من أعمال الخليل.

• بتِّير: بمعنى محل الطيور، أو بيت الطير: قرية من أعمال القدس.

• بديا: تحريف «بَدَّة» بمعنى المعاصر ـ معاصر الزيت ـ: قرية من أعمال نابلس.

• بدُّو: قرية من أعمال القدس، بمعنى المعصرة، والواو في السريانية للتعريف (البدّ).

• بربرة: بمعنى يدوي: من أعمال غزة.

• بَرْقة: بمعنى البرق واللمعان، أو تحريف بَرجا، بمعنى البرج: قرية كانت قبل 1948م من أعمال غزة.

• بُرَير: تصغير لكلمة «برّ» الآرامية، بمعنى الحقل: قرية كانت في لواء غزة.

• بَلْعا: بمعنى البالعة، والمزدردة: قرية من أعمال طولكرم.

• بيت ثول: تحريف «تولا» الآرامية، بمعنى: «التل» أو «الظلّ»، وهي قرية من أعمال القدس.

• بيت جبرين: هي بيت جُبْرا، أو بيت جُبري، بمعنى بيت الأقوياء الجبابرة: كانت تقع للشمال الغربي من الخليل.

• بيت جَنّ: بمعنى بيت الملجأ: قرية من أعمال عكا.

• بيت حنينا: بمعنى بيت المخيمين، وبيت النازلين: قرية من أعمال القدس.

• بيت ريما: من «ريمات» بمعنى الصخر العظيم: من أعمال رام الله.

• بيت لاهيا: بمعنى بيت مقفر: من قطاع غزة، ما زالت باقية.

• بيتا: بمعنى (البيت): في قضاء نابلس.

• ثمرة: بمعنى الثمر: قريتان، واحدة من أعمال عكا، والثانية من أعمال الناصرة.

• الجانية: تحريف جينيا السريانية بمعنى ملجأ أو مخبأ: من أعمال رام الله.

• جبّول: بمعنى الخزّاف: قرية كانت من أعمال بيسان.

• الجيّة: بمعنى المكان المبهج الرائق اللطيف: قرية كانت من أعمال غزة.

• حَجة: من أعمال نابلس، بمعنى العيد والسوق والموسم والمجتمع.

• حَدَثا: بمعنى الحديثة: من أعمال طبرية.

• حَوّارة: بمعنى البياض: قرية من قضاء نابلس، دعيت بذلك لبياض تربتها.

• خَرْبتا: بمعنى الخربة المقفرة: من أعمال رام الله.

• الدلهمية: من أعمال طبرية. مركبة من لفظين: دلها ـ ميّا بمعنى: الاستقاء ونشل الماء، (دلو الماء).

• دنّابة: تحريف كلمة «دنوب»، و«دنوبا» السريانية، بمعنى: الطرف والمؤخرة، ومن الجبل سفحه: قرية من أعمال طولكوم، وتقع في نهاية السهل وأول الجبل.

• دير استيا: الكلمة الثانية سريانية (استا) بمعنى الحائط والجدار: وهي قرية من أعمال نابلس. والدير: بمعنى: مكان العبادة.

• ديوك: بمعنى: الموقع المشرف والمطل: كانت من أعمال أريحا.

• زيتا: بمعنى: شجرة الزيتون وثمره وزيته: ثلاث قرى من أقضية: طولكرم، ونابلس والخليل.

• سَجَد: من سجْدة الآرامية بمعنى: المكان والسجود: وهي كانت محطة من محطات الخط الحديدي بين يافا والقدس.

• سِلْوان: بمعنى: الشوك والعليق: بجوار القدس، أو من أحيائه.

• شوفة: من جذر شوف، ومعناه: الارتفاع والعلوّ والتطلع: من أعمال طولكرم.
• صرطة: تحريف «صردا» السريانية، وصرد بمعنى: البرد: قرية من جبال نابلس.
• صرفند: تحريف صرفة السريانية، ومعناها: صهر المعادن، وهما قريتان كانتا من أعمال الرملة.
• صرَّة: بمعنى: الصرّ والعقد والتضييق، «الضيِّقة»: من أعمال نابلس.
• صفد: بمعنى: الشد والربط: وهي مدينة صفد في الجليل.
• طُرعان: من قضاء الناصرة، بمعنى: حظيرة الغنم والضأن.
•طلوزة: من قضاء نابلس، بمعنى: صغار وأحداث، أو تحريف طلوشة، بمعنى لزج طيني.
• عزّون: بمعنى: عزَّ؛ أي: قوي واشتد: في قضاء قلقيلية.
• عيلوط: بمعنى: المرتفع والقمة: في قضاء الناصرة.
• عين قينيا: بمعنى: عين القصب: من أعمال رام الله.
• قانا: بمعنى: العش. وما زال دارجاً، يقولون: «قنّ» الدجاج.
• قبية: بمعنى: مجتمع الماء: من أعمال رام الله.
• كفر دان: قرية الحاكم، أو القاضي: من أعمال جنين.
• كفر عانه: عانه، بمعنى: الغنم والضأن: من أعمال يافا.
• الكفير: تصغير «كفْر» القرية الصغيرة: من أعمال جنين.
• كوكبا: بمعنى: كوكب: كان من أعمال غزة.
• المطلة: بمعنى: المظلة: من أعمال صفد.
• الناقورة: من نقر، بمعنى: ثقب وحفر؛ لأنها طريقٌ منقورة في صخر ناتئ.

• الآدوميّون:

جاء اسمهم من الأرض التي سكنوها. فآدوم: كلمة من جذر عربي يُفيد أحد معانيه: «الاحمرار»، والأديم: الجلد الأحمر. قالوا: أخذت الأرض التي سكنوها اسم آدوم؛ لاحمرار صخورها وتربتها، وإليها نُسب هؤلاء العرب، قالوا: إنهم

كانوا بُداةً جوالين، ثم نزلوا البقاع الواقعة بين وادي الحسا[1] وخليج العقبة. وكانت «بُصرة» وهي اليوم «بصيرة» أشهر مدنهم كما كانت «البتما» أشهر مدنهم الجنوبية.

وأشهر مَنْ عُرف من الآدوميين «أيوب» عليه السلام. وقد سرق اليهود شعره، وترجموه إلى لهجتهم، وادعوه لأنفسهم، ووضعوه في كتابهم.. ويبدو أنه كان (سفر أيوب) من أقدم ما وُضع أصلاً باللهجة العربية. وقد لقبه فكتور هوجو «بطريرك العرب»، وقال: إن أيوب كان أديباً، وهو أول من ابتدع أسلوب الفواجع، وقد ضاع شعره العربي ولم يبق منه غير الترجمة (العبرية) المنسوبة إلى موسى.

وبقي الآدوميون في منازلهم حتى حلَّ الأنباط محلهم في نحو عام (500 ق.م)، فهاجر هؤلاء إلى فلسطين، واستقروا في جنوبها، حتى إن «الخليل» أصبحت من مدنهم، و«بيت جبرين» من قلاعهم.

• الأموريّون:

يرى بعض الباحثين أنَّ الأموريين هم الكنعانيون، والكنعانيون هم الأموريون، وإنما التفرقة في الزمن؛ فإنهم كانوا أولاً يسمون: أموريين، ثم عُرفوا فيما بعد بالكنعانيين. ولا يعني هذا أنهم الاسم البديل للكنعانيين بعامة في مدّة سابقة، وإنما هم فصيل عربيّ أخذ اسم الكنعانيين للمجاورة، أو لأي سبب.

ورد اسمهم في النقوش البابلية بأشكال مختلفة: أمورو، و«أماري»، و«مرتو»، وأصبحت لفظة «مرتو» مرادفة للفظة «غرب»؛ لأنهم كانوا إلى الغرب من البابليين.

ويرد في رسائل تل العمارنة اسم آمار، وآمور، ويقصدون به سهل البقاع في لبنان، وأن أمير البقاع هو أمير «أمورو».

وقد يكون اسمهم مشتقاً من «أمر» بمعنى العلو والارتفاع.

وقد ظهرت هذه القبائل أولاً في سهول سوريا الشمالية الشرقية، واتجه بعضها غرباً وجنوباً إلى شرق الأردن وفلسطين وجبال لبنان.

---

(1) وادي الحسا، ويقال: نهر الحسا، في شرقي نهر الأردن، يخرج من جبال الكرك، ويمر من قلعة الحسا الواقعة على الخط الحديدي الحجازي، ويفصل جبال الكرك عن جبال الطفيلة، وهو أغزر الوديان التي تصب في البحر الميت.

أما الذين تاخموا البحر، فقد عرفوا بالكنعانيين، ومن الكنعانيين كان الفينيقيون. واتجه البعض الآخر شرقاً جنوباً، واكتسحوا بابل، ومنهم كانت سلالة حمورابي الأمورية، ويعد حمورابي (1728 ـ 1686 ق.م) أشهر ملوكهم.

والجماعة الأمورية التي نزلت جنوبي فلسطين وشواطئ البحر الميت أنشؤوا لهم مدناً في «تل الحسي[1]»، وتل النجيلة[2]»، و«شعلبيم[3]»، ووسعوا مدينة «لخيش[4]»، و«جازر[5]»، وحصنوا جميع هذه المدن وأحاطوها بأسوار حجرية ضخمة، فصاروا يسيطرون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد على المواقع العسكرية في جنوبي فلسطين.

وقد وجدت صُوَرٌ على جُدر «مقبرة بني حسن» في مصر يعود تاريخها إلى أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد، يظهر فيها الشيخ الأموري «أبشا» ـ من جنوبي فلسطين ـ وبصحبته أبناء قبيلته من نساء وأطفال ورجال، ومعهم أمتعتهم محملة على ظهور الحمير، أتوا للتجارة في الروائح والدهان العطرية الكثيرة الاستعمال عند المصريين، وقد أحضروا معهم هدية لحاكم الإقليم تيتلاً ـ نوع من بقر الوحش ـ، وغزالاً، والرجال جميعاً ملتحون، وشعر رؤوسهم كث غزير أسود اللون. . يلبسون ملابس صوفية مزخرفة، وعلى حافاتها أهداب، وبعضهم ينتعل نعلاً ذا سيور، والبعض الآخر ـ ومنهم زعيم القبيلة ـ يمشي حافي القدمين، أما النساء فيلبسن أثواباً قصيرة متعددة الألوان، وهنّ جميعاً يلبسن في أرجلهن أحذية حمراء، ويضعن فوق رؤوسهن طرحة مثبتة فوق الرأس بحبلة على هيئة الكوفية والعقال. .

---

(1) تل الحسي: يقع على مسافة أحد عشر ميلاً للجنوب الغربي من بيت جبرين، وستة عشر ميلاً للشمال الشرقي من غزة، والمدينة التي أقامها الأموريون كانت تسمى: «عجلون».

(2) تل النجيلة: في الجنوب الشرقي من قرية «برير» الواقعة على بُعد 18 كم للشمال الشرقي من غزة.

(3) شعلبيم: تقوم على بقعتها قرية «سلبيت» في الجنوب الشرقي من اللُّد.

(4) لخيش: تقع في جنوب فلسطين شمال شرقي مدينة غزة، وتعرف أطلالها باسم: «تل الدوير». أو في «تل الحسي» المارّ ذكره.

(5) جازر، أو تل الجزر شمال غربي القدس على بُعْد 35 كيلاً، في قرية «أبو شوشة» على مسيرة أربعة أميال غربي قرية عمواس المهدّمة ـ طريق يافا القدس ـ، وجازر بمعنى: نصيب أو مهر العروس.

وتُعدُّ هذه الرحلة مثالاً للهجرات أو اللقاءات السلمية، ونعرف منها كيف تختلط العروق في الإقليم الواحد، ونعرف أن الإقليم المصري كان يغذّى ـ على مرّ العصور ـ بالجنس العربي القادم إليه من جزيرة العرب.

ومن الآثار الدينية التي خلفها الأموريون: معبودهم «رشف» بمعنى: «النار»، و«الصاعقة»، ويحتمل أن اسم بلدة «أرسوف»[1] القديمة مشتق من اسم هذا الإله. وداجون: وهو إله الحبوب. وهو إله كنعاني أموري، فلسطيني، وخلد اسمه في قرية «بيت دجن» في فلسطين.

• المدْيَنيّون:

نسبةً إلى «مَدْين» التي ورد ذكرها في القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقوله تعالى في قصة موسى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾.

وذكرتُ أهلَ مدْين؛ لأن ممالكهم كانت تشمل جزءاً من فلسطين في «النقب»، وقيل: إن عاصمتهم كانت تقع في شمال الحجاز في الغرب من «تبوك» في السعودية، وتعرف العاصمة اليوم باسم «البدع»... زعم الزاعمون أن «مَدْين» سميت بـ«مَدْين» بن إبراهيم. ونحن لا نعترف بوجود ولد لإبراهيم اسمه «مَدْين»، ولا نعترف بزوجة لإبراهيم بعد سارة، ولا نعرف لإبراهيم زوجات إلا: سارة أُم إسحاق، وهاجر أم إسماعيل. ولسنا نصدق التوراة في كل ما تذكره. والخبر بأن إبراهيم تزوج بعد سارة امرأة اسمها «قطورة» مصدره الوحيد التوراة، ولا يوجد في مصدر آخر. فهو من أخبار الآحاد المعروف عن راويه الكذب، ولا تقبل أخبار التوراة حتى لو كان الراوي صادقاً؛ لأن سنده منقطع، فالراوي لم يعاصر القصة؛ حيث يفصل إبراهيم عن كتابة التوراة أكثر من 1500 سنة، وليس عند الراوي سندٌ، وإذا قالوا: إنَّ التوراة أُنزلت على موسى، وهو بَعْد إبراهيم، فإننا نقول: إن توراة موسى لم تصل إلى زمن تدوين التوراة (القرن الرابع قبل الميلاد) مكتوبة، وليس لكاتبها سند

---

(1) أرسوف، عرفت في العصر الحديث باسم «الحرم»، أو «سيدنا علي»، للشمال من يافا.

يوصله إلى موسى، وقرر المحققون أن التوراة ـ في جملتها ـ خرافات وأساطير. . يصح من أخبارها تحقق وجود بعض الأسماء في التاريخ؛ لأن لها شواهد في مصادر أُخرى. لكن الأحداث التي تحاك حول الأسماء مخترعة. والصحيح من قصة إبراهيم: وجوده في التاريخ، ووجود زوجتيه سارة وهاجر، ووجود ابنيه إسحاق وإسماعيل. ولكن القصص التي جُعل هؤلاء أبطالها، من نسيج الخيال، يشبه ذلك في أدبنا العربي قصة عنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي، والزناتي خليفة؛ فهؤلاء أشخاص ثابت وجودهم، ولكن 95٪ من أخبارهم خيالية. . وكثير من روايات التوراة يشبه نسيج مقامات الحريري والهمذاني؛ فالمقامات أشخاصها خيالية، وحوادثها خيالية، يصح منها أسماء الأمكنة فقط. .

ولذلك فإننا نرفض مقولة أن «مَدْين» هو ابن إبراهيم، أو أنه اسم إنسان، وإنما هو اسم مكان. واحتج الذين قالوا: إنه إنسان بقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، فلما قال: ﴿أَخَاهُمْ﴾ دلَّ على أن مَدْين شعبٌ. ويجاب عن ذلك بأن التقدير: وإلى أهل مَدْين، وهو أسلوب معروف في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، ويراد: «أهل القرية».

وقد ذكر القرآن «مَدْينَ» في قصة «شعيب»، وفي قصة «موسى»، فهل كانت مَدْينُ شعيب، هي مَدْينَ موسى، وكان شعيبٌ حما موسى؟

إذا وقفنا عند حدود التعبير القرآني، نقول: إن المكان واحدٌ، ولكنَّ صاحب موسى ليس شعيباً، وإنما هو رجل صالح كان في مدين؛ لأن القرآن لم يصرّح باسمه، وليس لنا أن نسمي مَنْ سكتَ القرآنُ عن التصريح باسمه، إلا إذا كان عندنا دليل قطعي؛ لأننا إذا ذكرنا اسماً ولم يكن هو المقصود، نكون قد كذبنا على الله، وقوّلناه ما لم يقل. والصحيح أن نقول: إن المَدْينيين أصهار موسى، ولكننا لا نعرف والد الفتاة التي جاءَته تمشي على استحياء، والتي قالت: يا أبت استأجره لنا.

وشعيب المذكور في القرآن بُعثَ إلى قومه قبل موسى بزمن؛ لأن الله تعالى لما ذكر نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً، أعقب ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ

بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾، فدلَّ ذلك على أن شعيباً كان من قبل زمن موسى وهارون.

وجاء في الخبر: أن رسول الله ﷺ قال لوفد جذام ـ وكانوا سكان مَدْيَن فجر الإسلام ـ: «مرحباً بقوم شعيب، وأصهار موسى..»، فإن صح هذا الخبر، فإنه لا يربط بين موسى وشعيب بمصاهرة. والجامع بين موسى وشعيب هو كلمة «مدْيَن» فقط؛ فهم قوم شعيب، وهذا صحيح، وهم أصهار موسى، وهذا صحيح.

وفي قرية «حطين» من نواحي طبريّة مقام لشعيب، وليس قبراً؛ لأنه لا يوجد قبر معروف لنبيّ من الأنبياء على وجه اليقين والتواتر، إلا قبر محمد ﷺ. وهناك أيضاً قبر «صفوراء» زوجة موسى. والربط بين زوجة موسى، وشعيب، ليس عليه دليل.

وقد استنبطنا سابقاً من قصة موسى في مدْيَن: أنَّ العربية، أو إحدى لهجاتها كانت شائعة في مصر؛ لأن أهل مدين عربٌ لاشكَّ في عروبتهم.

وقد علل بعض المؤرخين قول القرآن على لسان موسى: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا ﴾: أن موسى كان لا يجيد لغة القوم؛ حيث غاب في مَدْيَن عشر سنوات، وهذا تعليل فاسد؛ لأن موسى نُبِّئ في سنّ الأربعين، وقضى منها عشراً في مَدْيَن، وهذا يعني أنه وصل إلى مَدْيَن في سنّ الثلاثين، ومَنْ قضى في قومه ثلاثين سنة من بداية الطفولة، ثم اغترب، وغاب ما غاب عنهم، فإنه لا يمكنه نسيان لغتهم، ولا تؤثر اللغة الأجنبية في لسانه، إنه يحفظ لغة جديدة مضافة إلى لغته، وهذا ما نلاحظه عند سكان أوروبة وأمريكا من العرب، بعد عشرين سنة أو ثلاثين من إقامتهم، يتكلمون اللغة الأم غير منقوصة.

وفي حال موسى، من المرجح: أن اللغة كانت واحدة، أو أنهما لهجتان متقاربتان جداً.. وقد قيل: إن التوراة أُنزلت باللغة الأكدية، وهي لهجة عربية، ومن المفروض أنها موجهة إلى أهل مصر؛ لأن موسى أُرسل إليهم، ولم يكن خاصاً بفئة من الناس؛ بدليل أنه ذهب إلى فرعون، ودعاه إلى عبادة الله.

قال صاحب «لسان العرب»: «مَدْين» اسم أعجمي، وإن اشتققته من العربية، فالياء زائدة «فَعْيَل»، وقد يكون على وزن «مَفْعل»، وهو أظهر. ولكن إن كان على وزن «مفعل» يكون من الفعل «دان»، والميم زائدة. وإن كان على وزن «فعيل» يكون من الفعل «مدن» بالمكان: أقام به.

لكن قول ابن منظور: «اسم أعجمي» يريد أنه ليس في لسان قريش، وكانوا يعدّون الأسماء الواردة في اللهجات العربية العتيقة أعجمية؛ لجهلهم بها، أو لأنها لم تأت على الصياغة العربية التي جاء بها القرآن، فقالوا: إن «إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.. إلخ» ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة. فالاسم الكنعاني، أو الآرامي، أو السرياني، هو في مذهب علماء العربية، اسم أعجمي. وهذا ليس صحيحاً.

والعجيب أنهم يقعون في الشيء وضده: فالطبري يقول: إن الكنعانيين عرب، ولسانهم عربي، وابن منظور يقول في مادة «كنع»: «كان الكنعانيون أُمةً، يتكلمون بلغة تضارع العربية»، ومع ذلك يحكمون بأن الأسماء الواردة في لغتهم أعجمية.

كانت منازل أهل مدين تقع بين مصر وفلسطين والحجاز، وامتدت إلى بئر السبع، وإلى الشرق والشمال الشرقي من البحر الميت، ويذكر بعض الباحثين أن عشيرة «اللياثنة»، وعشيرة «الحسنات» في بئر السبع هم من بقايا المدْينيين.

وكان أهم أعمالهم التجارة، ولذلك فإن أشدّ انحراف خلقي وقعوا فيه، هو تطفيف الميزان، فكانوا يبخسون الناس أشياءهم.. بالإضافة إلى عبادة الأصنام. قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، ولذلك قالوا: إن المدينيين هم الذين أدخلوا الجمل المدجن إلى فلسطين وسورية.. والجمل أقوى الوسائل القديمة لحمل التجارة. وكانت لهم تجارة مع لبنان وفلسطين ومصر..

وهذا يدعم القول: إن المدينيين قبيلة من «المعنيين»، وكان للمعنيين دولة بلغت حدودها شمال الحجاز وجنوب فلسطين، وكانت «معان» في شرقي الأردن من مدنهم

التجارية. وقد ازدهرت هذه الدولة في الألف الثالث قبل الميلاد، وبقي أساسها في اليمن إلى (630ق. م).

• **العماليق:**

الظاهر أنه شعب أخذ اسمه من صفة أو صفات فيه: ففي «لسان العرب»: العَمْلق: الجور والظلم. والعملاق: الطويل، والجمع عماليق، وعمالقة، قال: والعمالقة: الجبابرة الذين كانوا بالشام. ويُقال لمن يخدع الناس ويخلبهم: عملاق. والمعنى الجامع لهؤلاء: الطول، مع القوّة.

وقد روى الإخباريّون عنهم قصصاً تتضمن كبر أجسامهم وطولهم، وعن أبنيتهم وقدمهم.. وهي قصصٌ فيها مبالغة.. ربما كان يكثر فيهم طوال الأجسام، ولكنها لا تصل إلى حدّ الشذوذ عن المألوف.. حيث جعلوا أجسامهم تطول أحياناً فتصل إلى عشرة أمتار.. ومنهم مَنْ جعل طوله مئات الأمتار؛ بحيث - كما زعموا - لا تستطيع يداه، أن تذبّ الحشرات عن قدميه؛ لقصرها. ونسوا أن طول القامة يستدعي أن تكون الأيدي مناسبةً للطول.

والعماليق والكنعانيّون شعب واحد، وكانا متعاصرين، وكانت بلادهم تقع في جنوبي فلسطين، وفي الأراضي الكائنة إلى الغرب والشمال الغربي من البتراء، وفي (سيناء).

لهذا، رجحنا أن الأرض المقدسة المذكورة في القرآن على لسان موسى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ هي في سيناء، وليست فلسطين أو القدس أو الشام. وهي الأرض التي نبئ فيها موسى. وقد وصفها الله بالمقدسة فقال: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. وكانت هذه البلاد يوم خروج موسى وقومه من عاصمة الفرعون تحت سيطرة العماليق. ولذلك قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ يعني: إنهم قوم أشدّاء فيهم قوة وجبروت.

وقد اكتشف من آثارهم قلعة في «عين القديرات» بالقرب من الحدود الفلسطينية المصرية، ترقى هذه القلعة إلى الألف الثاني قبل الميلاد. وكانت مهمة القلعة حراسة الطريق التجارية الواصلة بين مصر والبحر الأحمر عن طريق بلاد العمالقة.

قلتُ: يبدو أن كلمة «عماليق» في العرف العربي، تشمل العرب التي يسمونها «البائدة».

قال الطبري: كانوا عرباً، ولسانهم عربي، وكان منهم ملوك العراق والجزيرة، وجبابرة الشام (الكنعانيون)، وفراعنة مصر. واللفظ صفة، وليس جَدّاً. والقول: إنه عمليق بن لاود بن إرم، من كلام النسابين الذين يهرفون بما لا يعرفون.

وهناك أقوال بأنه ليس هناك اسم «عماليق»؛ فقد نقل الزركلي في كتاب «الأعلام» مادة: «عملاق» عن حافظ رمضان في كتابه «أبو الهول قال لي»: قال: الهكسوس ـ حكام مصر القدماء ـ أي: الرعاة، والبابليون يسمونهم: «ماليق»، والعبرانيون أضافوا إليها كلمة «عم» أي: أُمة، فقالوا: عم ماليق. ثم نطقها العرب «عماليق»، ولما كان اللفظ في صورة منتهى الجموع، أخرجوا منه مفرداً، فقالوا: عملاق. والجمع عماليق وعمالق وعمالقة.

قال الزركلي: إن صح هذا، فيكون كل ما ذكره المتقدمون عن وجود شخص اسمه عملاق أو عمليق، مخترعاً.

وقال أحمد سوسة في كتاب «العرب واليهود» (ص933): «العمالقة اسم قبائل من قدماء العرب، هم أصل سائر العرب «البائدة»، وهو اسم شملهم جميعاً، كانت مواطنها تمتد من حدود مصر فطور سيناء إلى فلسطين. كان البابليون يطلقون عليهم اسم «ماليق» أو «مالوق»، وأضاف اليهود لفظ «عم» بمعنى الشعب، فقالوا: «عم ماليق»، أو عم مالوق. فقال العرب: عماليق أو عمالقة.

وقال: فتح العمالقة العموريون مصر باسم «الشاسو»؛ أي: البدو أو الرعاة. ويسميهم اليونان: «هكسوس».

هذا، ولم أقرأ في مصدر تاريخي: أن اسم «العماليق» وُجد مكتوباً في آثار، كما وُجد اسم «كنعان» واسم «فلسطين» واسم «آموري»، وأقدم مصدر كتب اسم «العماليق» هو التوراة. والتوراة ليست ثقة فيما تسمّي. خصوصاً وأنها نصبت من

هؤلاء العماليق أعداءً؛ لأنهم وقفوا في طريقهم عندما خرجوا من مصر، ووضعوا على لسان الربّ أنه قال لشاول: فالآن اذهب واضرب عماليق (عم ماليق)، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً.

ولم ينس اليهود اسم العماليق بعد ألفي سنة، ففي سنة 1956م لما ابتدأ الفدائيون العرب من قطاع غزة يزرعون الرعب في الأرض المحتلة، ويباغتونها ليلاً، مما جعل اليهود يختبئون في منازلهم كل غروب، قال بن غوريون في الكنيست: «هؤلاء أبناءُ العمالقة!! هؤلاء أبناء العمالقة».

قال أبو أحمد: وكان المؤرخون العرب يجمعون الشعوب العربية القديمة تحت اسم «عماليق»، ولم يفردوا شعباً بالذكر إلا الكنعانيين، بوصفهم فرعاً من العماليق. والدليل على ذلك أن الطبري ذكر العماليق، ثم فرّع الفروع.

وفي قصة عمرو بن لُحيّ، أول مَنْ جلب الأصنام إلى مكة قال ابن هشام في «السيرة النبوية» (جـ1/ 77): إن عمرو بن لُحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أُموره، فلما قدم «مآب» وهي (مؤاب) من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق - وهم ولد عملاق - ويقال: عمليق بن لاود بن سام بن نوح - رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، نستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يُقال له «هُبَل»، فقدم به مكة، فنصبه، وأمر الناس بعبادته.

ونقل ابن حجر في «الإصابة» (جـ6/ 549): أن عمرو بن لحي خرج إلى الشام، وبها يومئذٍ العماليق، وهم يعبدون الأصنام.

والشاهد في رواية ابن هشام أن جعل المؤابيين من العماليق. والشاهد في رواية ابن حجر أنه جعل العماليق سكان الشام جميعها.

والمصدر الرئيس في اسم العماليق: التوراة، ثم أخذه أهل القصة - وكانوا أكذب الناس -.

روى ابن الجوزي في كتاب «القُصَّاص والمذكرين» (ص346): عن عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ قال: مرّ بي أبي وأنا عند رجل يقصّ، فلم يقل لي شيئاً حتى أتيت البيت، فاتّزر وأخذ السوط يضربني وهو يقول:

«أمع العمالقة، أمع العمالقة؟! إنَّ هذا قرن قد طلع..».

كأنه أنكر على ابنه أن يستمع إلى القاص يحكي أخبار العمالقة، وجلُّها أخبار كاذبة من نسج الخيال.

• **الأنباط:**

ورد أن رجلاً سأل علياً عن نسبه، فقال: «إننا نَبَط من كوثى». وكوثى: بلدة بالعراق. والنبط، والأنباط: الذين كانوا يعملون في الزراعة. يريد عليٌّ أنه من نسل إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وأنه كان في كوثى في بابل العراق.

ولكن العنوان الذي كتبناه، لا علاقة له بالمعنى المذكور في القصة، ولكن الأنباط هنا قوم من العرب أقاموا دولة عاصمتها «البتراء» التي توجد في الأردن، وكان هؤلاء من العرب لاشكَّ في عروبتهم، بدليل أسماء ملوكهم وأسماء أصنامهم.

وقد اقتبس الأنباط من الآراميين ثقافتهم، وكتبوا بكتابهم، وتأثروا بلهجتهم حتى غلبت الآرامية عليهم، وللهجتهم أهمية خاصة؛ لأن اللهجة التي نزل بها القرآن، متطورة من اللهجة النبطية العربية المتأخرة التي تُعدّ من اللهجات العربية الشمالية.

وخط الأنباط قريب جداً من خط كتبة الوحي، وهو مأخوذ من القلم الآرامي القديم، وسمي بالقلم النبطي.

وزمن وجودهم حوالي القرن الرابع قبل الميلاد.

• **التدمريون:**

نسبة إلى تدمر، تقع في منتصف الطريق بين دمشق والفرات، على بُعْد 150 ميلاً، في الشمال الشرقي من دمشق، ونحو مئة ميل عن حمص.

وهي مدينة عربية عتيقة ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وجاء اسمها من لفظ «الثمر» أو الثمر، وسماها اليونان «باميرا» يعني: مدينة النخل، ويقال لثمر النخلة قبل أن يرطب «البلح»، وصار، أو عاد لهذه المدينة أهميتها في القرن الثاني للميلاد، بعد سقوط «بترا» عاصمة الأنباط. وكانت غالبية السكان تتألف من مجموعات القبائل العربية، وبرزت في حياة تدمر السياسية أسرة عربية حكمت فيها في القرن الثالث الميلادي.. ومن ملوكهم أُذينة، والملكة زنوبيا، وكانت لهم مع الروم حروب للتخلص من النفوذ الرومي.

وتزعم التوراة: أن «تدمر» من بناء سليمان، وهو من جملة خرافاتها، فإن تدمر مبنية قبل سليمان بآلاف السنين، ومع ذلك فقد انتقلت هذه الخرافة إلى العرب في الجاهلية، فذكرها النابغة الذبياني في قصيدة دالية:

وخيّسِ الجنَّ إني قد أَذِنْتُ لهم يبنون تدمرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ